المستحاثات البشرية والحية (المتحجرات الحية):

عند الغرب التركي ارهابي.. وهارون الرشيد فارسي.. واسمهان غنت: «عمر طوط الروم ما خوف أهاليك»

الامل هو ما ينقذ الانسانية.. وكتبة خطاب البابا تحجروا عند افكار دانتي ونسوا تاريخ التعايش بين الشرق والغرب

د. عبدالكريم غرايبة *

■ قد يبدو العنوان غريبا ومتناقضا. إذ كيف يصبح الانسان حجرا وهو على قيد الحياة. هل من الممكن ان يكون الفكر متحجرا ومعاصرا في آن واحد. وهل في العقل حجرة متفاوتة في أسلوب عملها وتاريخها؟ هل توجد حجرة متخلفة أو متحجرة تعمل بمنطق ما قبل التاريخ وأخرى في التاريخ القديم وثالثة في العصور الوسطى رغم وجود حجرة لفكر القرن الحادي والعشرين! وكلها تعمل على نمط يتجاهل فيه البعض البعض الآخر الى مستوى الانقطاع أو الانفصام؟ ولكن هذا ما سمعته من شيخ مهيب ونحن وقوف في محل بيع كتب في القاهرة صيف 1962م دون ان يعرف أحدنا الآخر. وحدثني الشيخ طويلا وطوف بي وأنا مأخوذ بكلامه ومعجب. وقال لي ان اليهود في عصرنا الحاضر مستحاثة بشرية يعيشون في القرن العشرين ويحتلون أرفع مراكز الفكر والعلم والفن ولكن تبرز بينهم نزعات تعود بهم قرابة ثلاثة آلاف سنة الى الوراء. هم أهل الكهف في القرن العشرين.

وعرفت من صاحب المكتبة ان محدثي هو الكاتب الكبير عباس محمود العقاد (أسوان 1889 ـ القاهرة 1964م) الذي صنع نفسه بنفسه مفكرا وناقدا وأديبا وكاتبا وشاعرا دون ان يتم في دراسته النظامية المرحلة الثانوية. وسجن في الأربعين من عمره لأنه تجرأ وألف كتابا ونشره عن الحكم المطلق في عهد صدقي باشا. وأضاف صاحب المكتبة ان العقاد أكبر مشتر للكتب ولكن بيته لم يعد يتسع للمزيد لذا فانه ما ان يتم قراءة الكتب حتى يعيد بيع أكثرها بأرخص سعر. وهذا ما سهل على كثيرين بناء مكتبات خاصة بتكاليف قليلة.

وأنساني الزمن حديث العقاد أكثر من أربعين سنة الى ان ذكرني به اثنان هما شيمون بيريز وقداسة البابا. وبيريز يهودي عتيق نال جائزة نوبل للسلام بعد ان شغل مناصب رفيعة في دولته كان منها وزارة الدفاع ورئاسة الوزراء. وكان أول رئيس وزراء يهودي يزور بلدا عربيا بصورة رسمية مثيرا أزمة بين بلدين عربيين، هما المملكة المغربية وسورية ولكن هذا السياسي بعد طول ممارسة ورغم جائزة السلام صرح أنه (وقومه مثله) لا ينسى ما فعله الآشوريون والبابليون باليهود. وزاد الأمر تعقيدا كلام رئيس وزراء اليهود وهو يطالب نواب دولته منحه الثقة ليتمكن من جعل دولته يهودية نقية العرق واللغة والدين والحضارة تقوم على أسس قومية دينية عنصرية يفصلها عن غيرها جدار عازل. ونسي الاثنان في كهفهما القديم، ان العالم أجمع على محاربة الأفكار النازية للقضاء على دعاة النقاء العرقي والقومية المتطرفة وهذا ما أدخلنا الى عصر العولمة. ونسي بيريز ان الآشوريين والبابليين الذين يحقد عليهم لا وجود لهم ولا يوجد من يدعي أنه من سلالتهم ولا يستطيع الا القلائل جدا جدا، بالعشرات، قراءة ما كتبوه. وهذا جوهر فكرة المؤرخ الشهير برنارد لويس، الأستاذ السابق في جامعة لندن ثم برنستون، في دراسته عام 1988م عن خارطة الشرق الأوسط الجديد التي تبناها اليمين الأمريكي والغرب كله بعد ذلك بقرابة عشرين سنة.

وتحدث قداسة البابا هذه الأيام ـ أواخر عام 2006 ـ من جامعة المانية حديثة نجحت بالتخلص من آثار القصف الأمريكي الوحشي. ولهذا السبب هي حديثة بل أحدث من الجامعات البريطانية والأمريكية التي لم تتعرض لقصف مماثل. ومع ان الجامعات تفتخر عادة بالاناة وعدم التحرك بسرعة وضعف الرغبة بالتغيير، الا ان الجامعات الالمانية تخطت هذا الوضع وتجاوزته بعد ان عانت ما عانته خلال الحرب العالمية الثانية. ونجحت في تحقيق بداية جديدة يصعب على الجامعات العريقة ان تقوم بها في الأحوال العادية. ولا يعني هذا الحديث ان تخريب الجامعات ضروري لتحقيق بداية جديدة ونقلة أكاديمية نوعية.

برنارد لويس والشرق الاوسط

وأبرز برنارد لويس الفروق بين أسماء البلدان العربية (بلدان الشرق الأوسط، وهو اصطلاح كريه) والبلدان الأوروبية. وأوضح ان الأسماء في أوروبا تعكس تشابها بين اسم البلد واللغة والسكان. أي ان الألمان وألمانية واللغة الألمانية كلها تعكس نسبة واحدة. وفاته ان أبرز دولة لاتينية وأول بلد قومي في العالم يحمل اسم خصومه التاريخيين. ويفرض الفرنسيون (الافرنج، فرانك) لغتهم الفرنسية (فرانكيا فرانسا) بالقانون. ويشفع لهم ان اسمهم بلغة خصومهم يعني الأحرار. كما أن أهم بلد عربي والوحيد الذي ورد اسمه في القرآن الكريم وهو مصر يحمل معنى قطر أو بلاد. وهو البلد الوحيد في العالم الذي لم تتغير حدوده خلال ثلاثة آلاف سنة. وقد يكون الاسم مصر أفضل من كمت (الأرض السوداء) أو دشراتا (الصحراء أو دزرت) أو حتى الكلمة اليونانية التي اشتق منها قبط وايجبت. وأعاد عراقيون استعمال اسم بلادهم القديم بلاد ما بين النهرين أو نهارينا أو بلاد الرافدين. ويبقى لويس محقا بأن أول دولة أدخلت اسم العرب الى اسمها كانت العربية السعودية عام 1932م، وأن أقرب اسم فيه عروبة هو العربية السعيدة أي اليمن كما ورد في الروايات اليونانية الا ان الشريف الحسين بن علي اطلق على مملكته اسم المملكة العربية الهاشمية ووقع في مراسلاته باسم ملك البلاد العربية. وعندما قامت الوحدة بين مصر وسورية أطلق عليها عبد الناصر اسم الجمهورية العربية المتحدة فلما انفصلت سورية سمت نفسها الجمهورية العربية السورية. وأطلق أنور السادات على مصر اسم مصر العربية. كذلك أطلق على الاتحاد العراقي الأردني عام 1958 اسم الاتحاد العربي الهاشمي.

امبراطور لم يسيطر الا على عاصمته

وفاجأنا قداسة البابا بكلمته. وتحدث عن كليتي لاهوت في جامعته بينما لا يوجد مثل ذلك في أي بلد عربي أو اسلامي. ويستنتج من كلامه ان احدى الكليات لوثرية والأخرى كاثوليكية. وتكلم قداسته من جامعة بافارية هي مهد العصبية الكاثوليكية المناقض فكريا للشيوعية السابقة التي تدير ألمانيا اليوم بعد عملية انقلاب فكري وصل الى 180 درجة لذا انبرت للدفاع عن قداسته. وهو يتحدث عن الامبراطور البيزنطي الثاني قبل الأخير وفي عهد السلطان العثماني بايزيد الصاعقة أو أبو يزيد حسب المصادر العربية. ولم تتجاوز حدود امبراطورية مانويل أسوار عاصمته ولم يحلم قط بالوصول الى أطراف أنقره. وتقول الروايات ان الناس خارج الأسوار كانوا عبيدا للأتراك، أما من هم داخلها فقد أرهقتهم الضرائب والادارة الفاسدة والفساد صفة تلازم بحق أو بدون حق، كل حكم. والمخيم الشتوي في أطراف أنقره أمر مستبعد لأن الشتاء بارد جدا وتغمر الثلوج الكثيفة كل المنطقة ذات الغابات الكثيفة. ولم أتحمل برودة الطقس فيها في تموز فاكتفيت بيوم واحد رغم جمال الطبيعة الخلابة.

كان مانويل محاصرا فترة حكمه الطويلة (16 شباط /فبراير1391م/ 21 تموز /يوليو 1425م) لوقوع كل الأرض الآسيوية والأوروبية المجاورة بيد العثماني. وكان السلطان مراد قد جعل أدرنة عاصمة له وهزم الامارات البلقانية التي كان الطاعون الأسود قد أنهكها وألحق بها ضحايا بشرية كبيرة جعلتها عاجزة أمام العثماني. والطريف ان هذا الطاعون الذي ساعد العثمانيين على التوسع هو الذي قضى في الغرب، في الأندلس، على سكان عدد من المدن الاسلامية وجعلها عاجزة عن الصمود. بدا ان كل تقدم عثماني في الأناضول والبلقان وازاه ورافقه تراجع عربي اسلامي في الأندلس. وسقطت القسطنطينية قبل غرناطة بأربعين سنة.

شعر مانويل (عمانويل) ان طوق النجاة يجب ان يأتيه من الغرب، وتحديدا من الفاتيكان، وفعل كما فعل والده يوحنا الخامس من قبل، أي العمل على ارضاء الفاتيكان. وقصد كل منهما روما للصلاة في كنيسة القديس بطرس. وأقسم يوحنا فيها الولاء للبابا يوم 21 تشرين الاول (نوفمبر) 1369م رغم أنه الحامي الرسمي للأرثوذكسية والرئيس الأعلى للكنيسة الأرثوذكسية. كذلك قام مانويل بزيارة البابا طويلا في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) 1399 فأصدر الفاتيكان في 27 أيار (مايو) 1400م نداء لملوك المسيحية يدعوهم فيه لمساعدة الامبراطور. وتلقى مساعدات من فرنسا وانكلترا. كذلك وصلته مساعدة مالية من دوق موسكو رغم ما عانته موسكو على يد تيمورلنك الذي احتل موسكو مرتين وأمضى فيها أكثر عام 1395م.

واشتد ضغط السلطان العثماني بايزيد (791هـ /1389م ـ 805هـ/1403م). تولى بايزيد بعد النصر العثماني في معركة كوسوفو (15 حزيران/يونيو 1389م) التي أصيب فيها السلطان مراد بجرح بليغ أدى الى وفاته. وواجه بايزيد أحلافا معادية في البلقان والأناضول. ولكن مانويل الذي ساهم بايزيد في تنصيبه بقي مواليا للسلطان ورافقه في حملاته الآسيوية. ودعا الامبراطور الى مخيم السلطان الشتوي عام 1394م. وبدأ مانويل يتململ من هذه التبعية ويتصل بالغرب طلبا للمساعدة. وقصد روما في 10 ربيع الثاني 802هـ/ 10 كانون الأول (ديسمبر) 1399م، في الوقت الذي وصل فيه تيمورلنك الى الأناضول.

برز السلطان تيمورلنك الشيعي المذهب (ولد سنة الفار 25 شعبان 736هـ الموافق 8 نيسان (ابريل) 1336م ـ 19 كانون الثاني/يناير 1404م) في كش من أواسط آسيا. وادعى أنه من سلالة جنكيز (المحيط) خان عندما أعلن نفسه ملكا في بلخ عام 1370م. وأسس امبراطورية كبرى بأخذه موسكو عام 1380م و1395م، ودلهي عام 1398م، وبغداد وحلب ودمشق عام 1401م، ومات وهو في طريقه لفتح الصين. وحدث صدام مع بايزيد في معركة أنقرة في 19 ذي الحجة 804هـ/ 21 تموز 1403م، نجح فيها بأسر بايزيد الذي مات بالأسر في 14 آذار (مارس) 1403م. وقد حاول مانويل مؤيدا من الغرب الايقاع بين الشيعي تيمور والسني بايزيد الحنفي والسني الشافعي برقوق سلطان مصر والشام وحقق نجاحا. وتعرضت مدن بغداد وحلب ودمشق الى مذابح مدعومة بحماس طائفي ومال من الفاتيكان. والتقى تيمورلنك بعض علماء العصر أمثال المؤرخ ابن خلدون والمعجمي الفيروزآبادي. واعتبر قائدا عسكريا كبيرا شديد القسوة. وأراد السوفييت تخليد ذكراه بصفته سوفييتيا فقرروا دراسة عوامل عبقريته العسكرية. ونقلوا رفاته الى لينينغراد (بطرسبورغ). وحطت الطائرة بها لحظة بداية الهجوم الألماني على المدينة في الحرب العالمية الثانية فاعتقد البعض ان مارد الحرب خرج من قمقم رفاة تيمور. وأسس حفيده بابور (ت 26 كانون الاول/ديسمبر 1530م) امبراطورية المغول في دلهي.

اسر بايزيد

وتحسنت أحوال مانويل بعد أسر بايزيد. ونشبت حرب أهلية بين أولاد بايزيد وحاول كل امير طلب مساعدة مانويل. واستعاد الامبراطور بعض المقاطعات القريبة ولكن بروز مراد الثاني (1421 ـ 1451م) قضى على أحلامه. وبدا واضحا ان نهاية بيزنطة قريبة. ووصلت الامبراطور الأخير قسطنطين الحادي عشر (6 كانون الثاني/يناير 1449م ـ 29 أيار/مايو1453م) مساعدات غربية تكاد تكون مماثلة لقوة بيزنطية. وأقيم قداس لاتيني في القسطنطينية في 12 كانون الاول (ديسمبر) 1452م لاقناع الفاتيكان بزيادة المساعدات. ولكن بعض البيزنطيين فضلوا «عمائم الأتراك على تيجان أساقفة اللاتين».

ويبدو واضحا ان الذين أعدوا الكلمة لقداسة البابا لم يكونوا عارفين بحقائق التاريخ. كانون منساقين عاطفيا مع أقوال الشاعر الايطالي دانتي (1265 ـ 1320م) المتوفى قبل مانويل بقرن. ولكن أفكاره تحجرت في عقول كثير من العلماء ورجال السياسة. وعدد المراسيم التي تدعو للقتل والصادرة عن الفاتيكان لا تحصى. والحروب الصليبية مثل حروب ما يسميه الاسبان حروب الاسترداد حدثت تنفيذا لرغبات الكنيسة. وتسببت هذه المراسيم في عمليات قتل وحرق وابادة أو ما يسمى اليوم بالهولوكوست (القتل مع الحرق) في فلسطين والأندلس في القرون الوسطى.

وتحدث قداسته عن عالم فارسي دخل في نقاش مع الامبراطور. وكلمة فارسي لا تعني أنه فعلا كذلك. فقد أشارت سجلات شارلمان حوالي 800م الى هارون الرشيد بأنه ملك الفرس. وأطلق الأوروبيون كلمة تركي على أكثر العرب بمن في ذلك أهل المغرب الأقصى الذين لم يدخل الأتراك بلادهم. وعندما ذهب الأوروبيون الى أمريكا الشمالية لم يجدوا فيها كثيرا من حيوانات العالم القديم مثل الدجاج والأغنام والماعز والخيل. ولما شاهدوا طيرا قليل الطيران كبير الحجم له عرف أحمر وصوت ضخم شبهوه بالانكشارية الأتراك و سموه الطير التركي. وذكر قاموس أكسفورد الكبير ان التركي هو ارهابي عضو في الجيش الجمهوري الأيرلندي وذلك قبل الحديث عن ارهاب القاعدة. وسبق لونستون تشرشل ان ألقى كلمة في لندن في كانون الثاني (يناير) عام 1920م، علقت عليها التايمس مؤيدة في عددين أو أكثر، أغدق فيها على رمضان شلاش لقب ارهابي، بن لادن الأول، واعتبره أحد أركان محور الشر الثلاثي مع لينين ومصطفى كمال.

روم وعلوج

ونظر العالم العربي الى أهل الشمال بأنهم روم وعلوج. أما العلوج فهم منسوبون الى الانسان الخرافي الذي عاش في رملة عالج التي تدعى اليوم صحراء النفود في شمال السعودية. وحديث العلج مشابه للحديث عن الانسان الثلجي الذي ادعى أناس رؤية آثار رجليه على الرمل والثلج ولم يره أحده ولم يثبت وجود أي منهما. أما الروم فهم في رأي العرب القدماء سكان بيزنطة، بل وجميع الافرنج حتى الأندلس. واستمر اطلاق اسم الروم على السلاجقة الذين دخلوا الأناضول بعد ملازكرد ثم على العثمانيين. وغنت أسمهان افتخارا قبل قرن «عمر طوط الروم ما خوف أهاليك» وأطلقنا على الديك التركي اسم ديك رومي. وتحدث كثير من العلماء عن رحلاتهم الى عاصمة الروم أي العاصمة العثمانية. وقال المؤرخ المصري ابن اياس قبل حوالي خمسة قرون ان الروم انتصروا على الأتراك في مرج دابق. والأتراك هم المماليك الذين حكموا مصر من نهاية العصر الأيوبي الى مجيء برقوق على رأس المماليك الشراكسة عام 792هـ/ 1380م. وبويع برقوق سنة وفاة تاجر العبيد الذي جلبه وأتى بأبيه أنص بعده. وقيل عن برقوق الشركسي انه السلطان الخامس والعشرون من ملوك الأتراك ممن ملك الديار المصرية والثالث والعشرون ممن ملك مصر والشام والثامن من السلاطين الذين مسهم الرق. ووصل أيضا الى القاهرة ذلك العام «شيخنا أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي المالكي الاشبيلي المغربي» الذي تولى منصب قاضي القضاة المالكية يوم الاثنين 19 جمادى الآخرة عام 786هـ/ 1385م وأطلق عليه لقب ولي الدين ثم عزل يوم السبت السابع من جمادى الأولى 787. وساد رخاء في القاهرة رغم الرعب من تهديد تيمور وانتشار الطاعون ووباء البقر وكثرة الحرائق في دمشق. ورغم مرور قرون على الحكم التركي في مصر فان السلطان برقوق لم يجد في القاهرة من يقرأ له رسالة تيمور في ربيع أول 796هـ الموافق كانون الثاني 1394م. وتجمدت فكرة الروم في عقول كثيرين فدعا أبو أيوب المصري خليفة الزرقاوي قبل زمن قصير لقتل الروم ناسيا ان الروم ليس لهم وجود. ويطلق الاتراك وبعض العرب اسم الروم على كل شيء يوناني لذا دعي اتباع الكنيسة الارثوذكسية روم ارثودوكس بدلا من يونان.

وأشار قداسته الى العنف الذي رافق نشر الاسلام. ولا يمكن ان ننكر ان المسلمين خاضوا حروبا لنشر عقيدتهم ودينهم، مثلهم في ذلك مثل كل من نشر عقيدة جديدة في كل عصر ومكان. وهكذا نشر الاسبان المسيحية في أمريكا بل وفي بلدهم أيضا. ولكن الاسلام انتشر في بقاع أوسع في العالم بصورة سلمية وبدون مبشرين. وأرجو ان يتذكر قداسته ان المسلمين قضوا وبعد تردد طويل وشديد على دولة وطنية واحدة فقط هي الامبراطورية الساسانية الفارسية. وأخذوا الأقطار الأخرى من محتلين أغراب عنها. وشكلت الأرض العربية ثلثي البلاد المفتوحة فاعتبر احتلالها تحريرا. وأصبحت بلاد الفرس الذين قضى الاسلام على دولتهم الوطنية أكثر البلاد تمسكا بالاسلام، بل أكثر تمسكا به من الأقطار العربية.

وتحدث قداسته عن الآية (256) من سورة البقرة. واعتقد قداسته أنها مكية نزلت أيام ضعف المسلمين. ولكنها لم تكن كذلك، بل هي مدنية نزلت والنبي صلى الله عليه وسلم رئيس دولة يملك قوة عسكرية. وجاءت في القرآن الكريم مباشرة بعد آية الكرسي التي تتمتع بمنزلة خاصة عند المسلمين. وتظهر آية الكرسي قدرة الخالق اله الجميع بدون استثناء ـ رب المسلمين وغير المسلمين. وهذا ما يميز المسلمين عن غيرهم، وهي ان دينهم جاء للبشر كافة دون تفريق على أساس اللون أو الجنس أو اللغة. الاسلام أول دين وعقيدة جعل العالمية أساسا لدعوته.

أما الآية (256) التي جاءت بعدها، فقد شرحتها أسباب النزول وأوضحتها. أنها تمنع الأنصار من اجبار أبنائهم على دخول الاسلام والتخلي عن عقائد أخرى ارتضوها مثل اليهودية والنصرانية. هذه دعوة ليس لها مثيل في الأديان والعقائد الأخرى بل ولا في الأحزاب والجمعيات السياسية والاجتماعية. وتشكل مبادئ هذه الآية شعارا انسانيا يصلح تبنيه عالميا ليصبح أحد مبادئ حقوق الانسان وشعارا انسانيا للأمم المتحدة.

ولعل أغرب لقاء بين العرب والمسلمين من جهة، والأوروبيين والمسيحيين من جهة أخرى، كان في الأندلس أو اسبانيا. وتمسك العرب باسم الأندلس رغم ان الدلالة ليست حلوة لاشتقاقها من الفاندال والفاندالزم. ولم يكن غريبا ان يخرج العرب من الأندلس بالصورة المحزنة التي خرجوا بها. الأشد غرابة هو استمرار الوجود العربي الاسلامي الأمازيغي (البربري) فيها ثمانية قرون أقاموا خلالها حضارة مزدهرة شارك فيها الجميع. وكانت في الواقع حضارة أندلسية اسبانية متميزة. وقضى على هذه الحضارة جيوش قادمة من الشمال. لا من الشمال الأندلسي أو الاسباني بل من أوروبا ومن فرنسا وألمانيا وايطاليا ... وأقام العرب واخوانهم الأمازيغ (الأحرار) من الشمال الافريقي دولة مستقلة منفصلة عن دولة الخلافة في بغداد والقاهرة والمهدية وأحيانا معادية لها. وعاشت الدولة في عزلة قارية يعاديها العرب والبربر و المسلمون عبر البحر والافرنج في الشمال. ورغم قلة العدد فانهم تعايشوا مع متكلمي اللاتينية في البلاد واندمجوا وشكلوا معهم مجتمعا فريدا فيه الكثير من التعاون والألفة. ولم تقم ثورات مسيحية هامة ضد الدولة باستثناء ثورة عمر بن حفصون الذي تلقى العون من مسلمي افريقية لا من افرنج الشمال. وتقلصت الدولة الاسلامية بموازاة التقلص البيزنطي في الأناضول وانتهت القسطنطينية قبل حوالي أربعين سنة من انتهاء غرناطة. هكذا كانت الأندلس نموذجا رائعا للتعايش بين الأديان والأعراق لم يقم مثله في أي مكان. نعتز به رغم نهايته المأساوية الطبيعية والمتوقعة حسب رأي الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وتحالف هارون الرشيد وأولاده في حربهم ضد بيزنطة مع مجموعة دينية غريبة هي حزب الله أو البوغومل أو البوليشيان في شرق الأناضول والتي اتبعت عقيدة ثنائية مسيحية. وعندما تخلى عنهم المعتصم نقلهم البيزنطيون عنوة الى البلقان وأسكنوهم في مناطق البوسنة اليوم. واستاء منهم الفاتيكان كما استاء الأرثوذكس من قبل فصدرت تعليمات الى ملك المجر الكاثوليكي المؤمن بابادتهم. وطلبوا حماية العثماني الذي بادر الى حمايتهم بدون شروط. وأدهشهم هذا العمل الانساني العثماني واعتقدوا ان سببه الدين الاسلامي فدخلوا الاسلام بدون اكراه وضغط وأصبحوا اليوم يعرفون بالبوسنيين.

لباس مميز

وفرض العثمانيون كغيرهم من الفاتحين على جيران البوسنة في الشمال وهم الكروات الكاثوليك لباسا مميزا يرضاه الكروات أنفسهم. واختار الكروات ربط مناديل على رقابهم عرفت بالكروات أو الكرافات أو ربطات العنق. وفرض الاسبان المسيحيون على بقايا المسلمين لباسا مميزا هو منديل أزرق حول الرقبة تطور لاحقا ليصبح الشرابة الزرقاء في عمائم مصر والشمال الافريقي هكذا أبرز علماء المسلمين في افريقيا الألوان الثلاثة الأبيض والأحمر والأزرق التي أصبحت بعد عدة قرون شعارا للهيج الكبير المعروف باسم الثورة الافرنسية ودخل اللون الأزرق أكثر أعلام الغرب ولكنه لم يظهر الا في علم مسلم واحد وآخر عربي مسلم هما ماليزيا والصومال. وعندما حزن المغاربة على خسارة العرائش لبسوا الأحذية السوداء مع أنها كانت شعار الملة من اليهود. وتحولت كلمة ملة في المغرب الى ملاح بعد مرورها بالأحرف اللاتينية. وعاد المغاربة المسلمون الى الأحذية الصفراء بعد استعادة العرائش.

وحار المسلمون في كيفية التعامل مع المسيحيين الى الجنوب من مدينة السوق – أي أسوان، ومعناها في المصرية القديمة السوق. ولم يكن بالامكان تحويلهم الى مسلمين أو ذمة ولا مجال لعقد صلح وتبادل اعتراف في ذلك الزمن. فابتدعوا كلمة يونانية لاتينية الأصل هي البقط أو الهدنة المؤقتة أو بالتعبير العثماني، المتاركة. وتحجرت فكرة عدم جواز عقد سلام دائم واعتراف متبادل فطرح فلسطينيون فكرة هدنة طويلة الأمد مع اليهود أي بقط بديلا للاعتراف والسلام.

واني أدعو قداسة الحبر الأعظم الى التطلع الى صورة واضحة لوقوف المسلمين على عرفة في يوم شديد الحر والتدقيق فيها. انها تنطق بقدرة الخالق رب الجميع الذي لا يفرق في حبه للبشر ورعايته لهم بين أبيض وأسود وأصفر وأحمر. لا يفرق بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب. وان الكون كله له ولكل البشر. ولا يحق لأحد أو لدولة ضم القمر ولاية ثانية وخمسين لكب النفايات النووية عليه ولا جعل الفضاء الخارجي الولاية الحادية والخمسين. الكون للبشر كافة ولا يحق لأحد ان يحتكره أو يحتكر جزءا منه والفيصل في العلاقات هو المحبة لله ولعباده.

ونحن أكثر شعوب الأرض توجعا من أذى التاريخ. اذ لم يجمع الغرب بزعامة أمريكا على شيء مثل اجماعهم على تأييد تشريد الشعب الفلسطيني وحرمانه من أبسط حقوقه. ولم تتفق شعوب متحضرة متمدنة عبر التاريخ على ايذاء شعب مثل اجماعهم على حرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه الطبيعية. ونتج عن ذلك قيام كيان يتمسك بالنقاء العرقي الديني مخالفا للمبادئ الأساسية السائدة. وأقدم هذا الكيان على أغرب اجراء عندما أقام جدارا عازلا يفصله عن جيرانه ويكرس غربته في محيطه وانعزاله الحضاري. ورغم كل ذلك فاننا نردد مع السيدة أم كلثوم كلامها الانساني الجميل: فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو. نحاول ان ننسى أو نتناسى ونصفح «كي لا يتجدد بالتذكار جرح» ولا نصبح أسرى ذكريات تتحول الى أحقاد وأعباء علينا وعلى أبنائنا وأحفادنا وأبنائهم وأحفادهم. الا ان الغرب لا يسمح بذلك. ولكن لماذا يا قداسة الحبر الأعظم تنكأون الجروح؟

ويلاحظ من هذا الاستعراض المتباعد المتداخل ان التاريخ مستودع للحسنات والسيئات، للاصلاح والبناء والتخريب، للمحبة والكراهية. ونجد في ثناياه نماذج تدعو الى المحبة والتسامح والتعاون وأخرى تنمي العداوات وتبني الأحقاد وتشجع على الشر. وشعرت دول بخطورة هذه النماذج التاريخية فسعت لتلافي ضررها. وهذا ما دفع الدول الاسكندنافية في النصف الأول من القرن العشرين الى الاتفاق على وضع تاريخ مشترك يركز على التعاون بدلا من الخلاف بلا تزوير للوقائع. ورأى الجنرال دي غول والمستشار أديناور ان هدم جدار العداء التاريخي بين الألمان والفرنسيين ضروري لتعاون الأمتين. وتبنى الفكرة زمنا ملك الأردن الراحل الحسين بن طلال فأرسل ولي عهده رسالة حول الأمر الى شاه ايران الذي لم يتجاوب معتذرا بقلة المخصصات. والمؤسف ان الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو لم يقوما بعمل في هذا المجال.

وبرزت دعوات مريضة تستعين بالتاريخ لاذكاء الخصومات. وكان من بينها الرسومات الكاريكاتورية في الدنمارك وفرنسا وغيرها وأقوال أستاذ فلسفة فرنسي وكاتب انجليزي من أصل مسلم ورجل دين انجليزي من اللوردات وزلات لسان لعدد من كبار القادة والساسة. وأقر مجلس النواب الفرنسي قانونا غريبا للدفاع عن الأرمن. وشجب عمليات القتل والابادة أمر ضروري ولا نقبل بقتل الأرمن ولا اليهود ولا الغجر ولا الأفغان ولا العراقيين ولا اللبنانيين ولا الفلسطينيين ولا أهل رواندا والكونغو ودارفور. كل قتل مستنكر مهما كانت هوية القاتل أو المقتول.

ميثاق للحب الانساني

وتوقعت من قداسة البابا غير هذا. وكنت على وشك كتابة رسالة له على نمط رسالة أرسلتها للرئيس شيراك بعيد ميلاده ولبلير بمناسبة اعادة انتخابه. دعوتهما لتطبيق توصية أقرتها مجموعة عمل بريطانية في 27 حزيران (يونيو) 1989م حول تدريس التاريخ. وفوجئت بكلمة قداسته التي خيبت أملي. أعتقد ان قداسته هو الشخص المثالي الذي يمكن ان يدعو الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الحالية لتبني قرار لا يفرض عقوبات أو حظر على دولة بل يدعو الدول الى ارساء قواعد المحبة وأسس السلام بكتابة تاريخ موحد يقرأه الأطفال دون سن معين في جميع بلاد العالم.

انني أدعو الى وضع ميثاق للحب والأمل الانساني يدعو الى نبذ العنف والقسوة وكل أنواع القتل مهما كانت أسبابه ومبرراته. وهذا أهم من الدعوة لمحاربة الارهاب. دعوة الى الألفة والمحبة لا الى المحاربة والعقوبات والحصار. وأن ندعو من نتهمهم بالارهاب الى التوبة والاعتذار للانسانية والعودة الى حظيرتها. بل يجب ان يعتذر الجميع عما فعلوه وعما لم يفعلوه وهذا ثمن رخيص لنشر المحبة والسلام.

وليعتذر قداسة البابا أولا. ليعتذر لا لأنه ملوم أو متهم بل لأن الاعتذار شيء رخيص جدا اذا أدى الى نشر المحبة والوفاق والألفة بين بني الانسان. واعتذار قداسته العام الشامل للجميع، لا للمسلمين وحدهم بل للمسيحيين وغيرهم، أشد وقعا من أي عمل لآخر وأكثر تأثيرا. دعونا نصلي جميعا، كل حسب عقيدته وأسلوبه، ونبتهل الى الله لينشر المحبة بين الناس مع الألفة والعمل من أجل العيش المشترك. والأمل هو أهم ما نملك ولا يجوز السماح بدفنه. وعلى العالم ان يؤيد الفكرة الأساسية التي جاء بها الاسلام وهي ان الناس كلهم أمة واحدة.

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) سورة الحجرات.

* باحث وأكاديمي أردني

البابا بينديكتوس السادس عشر

منظر عام لمدينة اسطنبول